



الشعر الجاهليّ وفهم الإعجاز البلاغيّ

Pre-Islamic Poetry and Understanding the Rhetorical Miracles

عثمانيّ عمار

جامعة غليزان (الجزائر)، amar.othmani@univ-relizane.dz

ملخص

يروم المقال بيان أهمية الشعر الجاهلي وعظيمه في سبيل فهمنا لكتاب الله سبحانه وتعالى، وهو اهتمام جاء من منطلق البحث عن الوسائل التي تمكننا من تحليل مواطن الحلاوة والطلاوة التي شهدها بها الناس أجمعون في حق القرآن المعجز بيانا وبلاغة. اتفق السابقون واللاحقون على القول بقدرة القرآن العظيم على تحقيق تحديّ وبيان و بلاغة لم تبلغها العرب والعجم في تاريخها، رغم امتلاكهم لطرائق نظم الكلام، أو أنّ القرآن جاء على نظم و سنن العرب في كلامها، لكنّ الذي يثير التساؤل هو ما المميّز في كتاب ربّنا؟ جعل العرب تخرس في تحقيق بلاغته؛ وهو سؤال جوهريّ و شرعي لا بدّ من البحث والتأمل فيه، من حيث التنقيح في أمهات كتب العرب ومصادر علمها وتعلمها، منذ أنّ فتح هذا الكتاب باب السؤال اللغويّ والبلاغيّ. واختيارنا للشعر الجاهليّ في فهم كتاب الله من حيث بلاغته، ليس مفاضلة بينية، وإنما يمثل الشعر بيئة التحديّ.

كلمات مفتاحية: بلاغة- الشعر الجاهلي- النظم- الإعجاز- البيان- العرب.

Summary:

The article aims to demonstrate the importance of pre-Islamic poetry and its usefulness in understanding the rhetorical miracles in the Holy Qur'an. It is an interest that came out of the search for the means that enable us to explain the aspects of beauty and sweetness that all people have witnessed about the miraculous Qur'an in terms of rhetoric. Both the predecessors and the successors agreed on the greatness of Qur'an to

المؤلف المرسل: عثمانيّ عمار، الإيميل: amar.othmani@univ-relizane.dz

achieve a challenge, an eloquence, and a rhetoric that the Arabs and non-Arabs have not reached in history, despite their possession of the methods of the speech systems, or the fact that the Qur'an came according to the systems and the ways of the Arabs in their speech, but what raises the question is what is distinguished in the book of our God? He made the Arabs incapable of producing such rhetoric. It is a fundamental and legitimate question that must be researched and contemplated, by the parsing of the most important Arab books and the sources of their knowledge and learning.

**Keywords:** Rhetoric ; method; miracles ; systems; Arabs

### 1-مقدمة:

إنّ الاهتمام بالشعر في الحضارة العربية قديم؛ ذلك أنّ العرب في جاهليتها كانت أمة شعر؛ والنبوغ الشعري صفة فخر وعلو، ولم يضمحل هذا الاهتمام بمجيء الإسلام، بل كان حاضرا في مجالس الخلفاء والصحابة والفقهاء رضوان الله عليهم كما سنرى.

أبان اللغويون موقفهم اتجاه الشعر، وقد خصص عبد القاهر فصلا في الدلائل لبيان عظيم أهمية الشعر، والمعلوم أنّ كتابه هذا كان في آخر حياته، كما أعرب عن ذلك في المقدمة التي جعلها المحققون في فاتحة الكتاب، ومن ثمّ فإنّ موقفه ينبغي أن يؤخذ على محمل الجدّ.

إنّ ذمّ الشعر موقف قديم ظهر قبل عبد القاهر، فقالوا بشأنه صفات تتمثل في أنّه كلام هزل وسُخف، وهجاء وسبّ وكذب وباطل، وأنّه يتعلق بأحوال الشعراء الذين ذمّهم القرآن الكريم.

والذي لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم وتعاليم الدين الحنيف أثر في صنعة الشعراء، ومن ثمّ نحاول أن نحاور عبد القاهر في دفاعه عن الشعر.

إنّ عبد القاهر في ردّه على من ذمّ الشعر اعتمد على المفاضلة بينالقول الشعريّ وعدمه، وأنّ لو كان الشعر مذموما لأمكن « أن يفضّل الخرس على النطق، والعِيّ على البيان»<sup>1</sup>.

ويذكر ابن قتيبة فضل الشعر عند العرب، يقول فيما بيانه: « وللعرب الشعر، الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا ولأدائها حافظا، ولأسبابها مقيدا ولأخبارها ديوانا، لا يرثّ على الدهر، ولا يبديد على مرّ الزمان، وحراسه بالوزن والقوافي وحسن النظم وجودة التحبير، من التذليل والتغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور»<sup>2</sup>.

وقد عاد عبد القاهر إلى المدونة اللغوية في القرن الثاني والثالث الهجري، يقول فيما بيانه: « وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه من الأبيات فيها الفُحشُ، وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعيهم ذلك، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوا الشعر من أجله»<sup>3</sup>

والشعر في العصر الذي نزل فيه القرآن كان ملء أيام العرب وليالهم وساعاتهم يتناشدونه في كلّ منزل، ويتمثلونه عند كل موقف ومسير، ويتذوقونه تذوقاً بصيراً مرهفاً، ويفضلون بعضه على بعض بما اكتسبوا من القدرة على التذوق الفاصل بين أدق درجات البيان على اختلافها وتنوعه<sup>4</sup>.

وجاء في كتاب العمدة لابن رشيق: أنّ ابن عباس كان يقول: إذا قرأتهم شيئاً من كتاب فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإنّ الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً. وكانت عائشة ؓ كثيرة الرواية بالشعر يقال إنّها كانت تروي جميع شعر لبيد. وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين<sup>5</sup> ". وقد ذكر عكرمة أنّه ما سمع ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتاً من الشعر، وكان يقول: إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر، فإنّ ديوان العرب<sup>6</sup>.

روي عن عمر ابن الخطاب ؓ أنّه قال على المنبر ما تقولون فيها يعني بذلك قوله تعالى: " أو يأخذهم على تخوف "، فسكتوا، فقام شيخ من هذيل، فقال هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فسأله عمر ؓ: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟، قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرجل منها تامكا قدرا كما تخوف النّبعة السفن

فقال عمر ؓ: أيها النّاس، عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟، قال: شعر الجاهلية فإنّ فيه تفسير كتابكم<sup>7</sup>.

وقد كان كتاب السيرة والمغازي - في الصدر الأوّل - يحفظون كثيراً من الشعر الجاهلي ويستخدمونه في الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون. قال أبو الزناد عن أبان بن عثمان ابن عفان أنّه قلماً كان في صحبته دون أن يتمثل بأشعار شاعر، وذكر أنّ عروة بن الزبير وهو أيضاً من كتاب السير والمغازي كان من أروى النّاس للشعر<sup>8</sup>.

## 2- دلالة التحدي وتحقيق الإعجاز:

قبل ضبط العلاقة بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ينبغي أن نفهم الدلالة الحقيقية لمعنى التحدي تارة، والإعجاز تارة أخرى. ومردّ الإشكالية هو الإجابة عن تساؤل مفاده: ما الذي أعجز العرب؟.

وُضع لفظ «إعجاز القرآن» في أواخر القرن الثالث الهجري، ولم يكد حتى أحدث تاريخاً مستفيضاً رائعاً، شارك فيه أكبر علماء الأمة في اللغة والبيان والتفسير وعلوم القرآن وعلم الكلام، وسيظل هذا اللفظ باقياً يحدث تاريخاً لا ينقطع فيه أعلام العلماء والكتاب والباحثين<sup>9</sup>.

إنّ «إعجاز القرآن مركب إضافي معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل المحذوف للعلم به، والتقدير إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به»<sup>10</sup>. وهناك من يرى أنّ إعجاز القرآن هو ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرأي الصحيح لا الإخبار عن المغيبيات، ولا عدم التناقض والاختلاف، ولا الأسلوب الخاص، ولا صرف العقول عن المعارضة<sup>11</sup>. وهذا هو الوجه الذي وقف عليه البلاغيون في دراسته، فأقروا أنّ القرآن معجز ببلاغته، ومن ثمّ فإنّ العلوي (ت 749هـ) يرى أنّ التحدي إنّما كان من أجل بلاغة الشيء وفصاحته، وجودة نظمه ورشاقته سياقه، وهذا معلوم لا شكّ فيه بين الشعراء والخطباء<sup>12</sup>.

وبناء على ذلك يفهم على أنّ المعارضة التي كانت بين كفار قريش والرسول صلى الله عليه وسلم بلاغية محضة؛ يقول فيما بيانه: «الاعتماد في المعارضة إنّما يكون على البلاغة والفصاحة، وهو أنّ من سلف من المتقدمين الذي جروا في حلبة السياق، وسرحوا خواطرهم في مضمار المساجلة والتناحر والمقابلة، كأمريّ القيس، وعلقمة والأخطل، وزهير، والأعشى، ومن المتأخرين كالبحتري، وأبي تمام، وأبي الطيب المتنبي وغيرهم، ما كان تعويلهم فيما يجري من المعارضات على دقّة المعاني، ولا كان التحدي جارياً بينهم لعدم التناقض، ولا بالاستيلاء على الأخبار بالعلوم الغيبية ولكن كان جارياً بجودة الانتظام، وحسن السياق وجزالة الألفاظ»<sup>13</sup>.

والعلوي في ذلك يحاول أن يضع مقصوداً للمعارضة بناء على ما سجل في تاريخ الشعر العربي من مساجلات ومعارضات بين الشعراء، ومرتكزات التحدي بينهم.

وينبغي أن يقرن التحدي بالنبوغ؛ فتحدي القرآن للكافرين إنّما كان من نبوغ هؤلاء في الفصاحة والبيان، وجاء التحدي من جنس تفوقهم، ولهذا يرى محمد متولي الشعراوي أنّ معجزات الله تأتي وتتحدى من أرسل الله فيهم الرسول فيما نبغوا فيه؛ لأنّ «التحدي فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحدياً.. فمثلاً إذا جئنا ببطل العالم في رفع الأثقال، وتحدينا به رجلاً عادياً.. لا يكون هناك مجال للتحدي.. لماذا؟ لأنّ المتحدي لم ينبغ في نفس جنس العمل الذي أريد أن يتم فيه التحدي.. ولكننا إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم.. فإنّ التحدي يكون بينهما واضحاً، ويكون له معنى فيما يثبت أنّ هو الأقوى»<sup>14</sup>

وإذا كان المطلوب في التحدي هو الإتيان بمثل القرآن، سواء كان هذا المثل حديثاً كاملاً، أو سورة واحدة، أو عشر سور فإنّ الكفار كانوا يعرفون المراد بالمثلية المطلوبة منهم، وهي المثالية البيانية. ومن ثمّ فهم صلاح الخالدي إعجاز القرآن على «أنّه عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم على الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحديهم وتقدير عجزهم عن ذلك»<sup>15</sup>.

وعليه يتبين أنّ المقصود بالتحدي «أن يتحدى النبيّ بالمعجزة قومه الكافرين المكذّبين له، ويطلب منهم معارضتها وإبطالها أو الإتيان بمثله، وهم سيعجزون عن ذلك، لأنّها من فعل الله»<sup>16</sup>.

والإعجاز في ذلك ليس مقصوداً لذاته بل المقصود لأزمه وهو إظهار أنّ هذا الكتاب حقّ، وأنّ الرسول جاء به رسول صدق فيلزمهم أتباعه، وكذلك الشأن في سائر معجزات الأنبياء.

والحقّ أنّ إعجاز القرآن يفهم من صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس؛ وقد ذكر الخطابي أنّ ذلك وجهها ومن وجوه إعجازه، يقول فيما بيانه: «فإنّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص به إلى القلب ومن اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما خلص منه إليه تستثير به النفوس وتنشج له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق»<sup>17</sup>.

ثمّ إنّ صنيع القرآن بسامعه يعود إلى القوة بلاغته وبيانه، يتحقق معه التأثير، «فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلّم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأوّل، وأن يركنوا إلى مسالمتهم ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً».

وكان الكافرون المعاندون يحسون في قرارة أنفسهم أنّ هذا الكلام ليس من كلام البشر وكانوا يحسون بحلاوة عبارته، وطلاوة أسلوبه والمعاني الثرة المغدقة في موضوعاته وأتته يعلو ولا يُعلَى عليه، كما قالها الوليد بن المغيرة في لحظة صدق مع نفسه عندما طالب منه قومه أن يقول في القرآن قولاً لتجتمع كلمتهم عليه ولا يظهرون الاختلاف أمام وفود العرب في الموسم<sup>18</sup>.

لقد كان تأثير القرآن العظيم في مشركي قريش عاماً، فلم ينح عنه منه كبير ولا صغير، رئيس ولا مرؤوس تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم، بل لقد كان في رؤسائهم أشد وفي فصحاءهم وبلغائهم أقوى من عامتهم، لأنهم أدري بفنون الكلام وأساليبه<sup>19</sup>.

وروي عن أبي عبيدة أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ " فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين" فسجد، وقال سجدت لفصاحته، وسمع آخر رجلاً يقرأ " فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً" فقال: أشهد أنّ مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام". وفي ذلك دليل على أنّ الذي أثر في الأعرابيين هو تلك البلاغة المعجزة التي يوصف بها القرآن<sup>20</sup>.

ومن النماذج الحيّة التي تظهر أنّ إعجاز القرآن في صنيعة بالقلوب، قصة عتبة بن ربيعة، الذي تأثر بالقرآن، بعدما سمع من رسول الله ﷺ قول الله: بسم الله الرحمن الرحيم تنزّل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون"، ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره. وعاد إلى قومه، محدثاً، قائلاً: أني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأً عظيماً، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه لغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به<sup>21</sup>.

وقصة الأعرابيين وعتبة ربيعة إنّما تدل على أنّهم فهموا ما سمعوا من القرآن، وتأكدوا أنّ كلام الله مباين لكلام البشر.

ومن هذا المنطلق الذي تتباين فيه القدرات تكون المعجزة، التي يعرفها عبد القاهر البغدادي بأنها « ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من

الأنبياء»<sup>22</sup>، ومن ثمّ فإنّ العلوي يرى أنّ تقرير الدلالة على أنّ القرآن معجز يدلّ على صدق من ظهر عليه<sup>23</sup>.

والحاصل أنّ الله سبحانه وتعالى حين اصطفى من البشر محمداً صلى الله عليه وسلّم، ابتعثه رسولاً نبياً، وآياته كتاب عربيّ، والمطلوب على حدّ قول محمود شاعر أن يقرّوا « أنّ هذا الكلام العربيّ المنزّل هو كلام الله سبحانه، وأنّه وإن كان جارياً على أساليب لغتهم، فإنّه مفارق لكلام البشر بدليل ظاهر قاهر هم قادرون على تبيينه واستظهاره، فإذا تبيّنوا ذلك، فالتاليه عليهم، هو رجل من أنفسهم، نبيّ مرسل مبلّغ عن ربّه كلام ربّ العالمين»<sup>24</sup>.

وانطلاقاً من هذه الرؤية عزّف محمود شاعر إعجاز القرآن على أنّ القرآن دال على كلام الله سبحانه وتعالى أنزله بعلمه بلسان عربيّ مبين فنزل به جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ ليكون معجزته التي توجب من سمعها أن يشهد له بأنّه رسول الله أرسله إلى النّاس كافة<sup>25</sup>.

تبيّن لنا فيما تقدم أنّ تحدي القرآن كان بلاغياً، وأنّ الذين أعجز الكافرين في الإتيان بما جاء به القرآن درجة البلاغة التي يوصف بها كلام ربّ العالمين، ومن ثمّ يمكننا أن نسنّد البلاغة للإعجاز، فالذي يحقّ التردد به هو الإعجاز البلاغيّ؛ ولهذا يرى الرماني أنّ البلاغة تأتي في ثلاث طبقات، " منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلغة البلغاء من النّاس"<sup>26</sup>.

### 3- الشعر الجاهلي ومقاربة الإعجاز البلاغي:

يلاحظ فيما تقدم أنّ القصد في التحدي متعلق بالبلاغة والفصاحة، وأنّ القرآن يملك قوة بيانية، يعجز العرب تحقيقها، رغم شهرتهم بذلك. ومن جهة أخرى يمكن أن نقول إنّ الجيل الذي نزل فيه القرآن كان يفهم كلام الله؛ لأنّه نزل على سنن العرب في كلامها، وبالتالي فأيّ إنصاف لآيات الذكر الحكيم كان وقعه جلياً على سامعيه كما دللنا بذلك على نماذج غيّرت آراء كفار قريش، وهو دلالة واضحة على فهمهم للقرآن أولاً، وإحساسهم بالفارق بينه وبين كلامهم، وهو تحسس مكثف من تذوق القرآن ومحاورة طلاوته وحلاوته.

وهذا الذي تحقق يثير فينا تساؤلاً جوهرياً مفاده: كيف يمكننا الاستفادة من هذه التجربة الواقعية في سبيل محاورة إعجاز القرآن وتفسير وصف الوليد بن المغيرة لكتاب

ربنا؟ أو أننا يمكن القول: إنَّ القوة البيانية التي كانت تُعرف بها العرب في جاهليتها هي التي مكنت من حصول الأثر في الاستماع للقرآن، ونحن نعلم أنَّ بلاغة العرب وفصاحتها جسدتها في شعرها- الشعر الجاهلي- ومن ثمَّ فكيف يمكننا وصف العلاقة بين الشعر الجاهلي والقرآن؟ وهل يمكن أن يكون الشعر الجاهلي مدخلا مباشرا للتدبر الذكر الحكيم وملامسة إعجازه؟.

إنَّ جملة الأسئلة هذه قد بحث فيها العلماء قديما وحديثا، سواء كان ذلك بالتصريح أو الكناية.

لقد كان الباقلاني متفطنا إلى أهمية الأدب في البحث عن وجه الإعجاز في القرآن؛ ولهذا يربط بين بيان الإعجاز ومعرفة الأدب، يقول: «ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، وأردنا شرحه وتفصيله، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا وعن وجه اللسان غافلا؛ لأنَّ ذلك مما لا سبيل إليه، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية، قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين»<sup>27</sup>.

وهو في ذلك يضع شروطا لتحقيق تذوق القرآن، أهمها معرفة العربية، ومذاهب العرب في كلامها، لأنَّ ذلك يساعده في الوصول إلى الفرق بين كلام الله وكلام البشر، إذ يؤكد على ذلك ويقول: «فأما من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى يسمع القرآن عرف إعجازه (...); لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أنه عجز غيره كعجزه هو»<sup>28</sup>.

ثمَّ إنَّ الباقلاني قد أتى بأفكار هامة في سبيل تدريس علم الإعجاز للمتعلمين، وهو تدريس يرتكز الأصل فيه على الشعر وتذوقه؛ إذ يصور رؤية تعلم المتوسط في الأدب كيف يتذوق القرآن، ويقف على حلاوته وطلاوته، يقول: «فإذا أردنا أن نقرب عليه أمرا، ونفسح له طريقا، ونفتح له بابا - ليعرف به إعجاز القرآن- فإننا نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصوّر له صور كلّ قبيل من النظم والنثر ونحضره من كلّ فنّ من القول شيئا يتأمله حقّ تأمله، ويراعيه حقّ رعايته فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، والظّالغ عن الإلهية»<sup>29</sup>.

وأضاف الباقلائي كلاما جيّدا وأعطى مخرجا هاما في الذي يريد أن يتدرب حتى يقع عنده الفصل بين الكلامين، وهي حالة ناقص حظّ في الأدب، يقول: « إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا، وعلم العربية متبيّنا أن تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فإذا تبين لك الفصل ووقعت على جليّة الأمر وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد »<sup>30</sup>.

والذي يفهم من كلام الباقلائي أنّ مواطن الإعجاز ينبغي أن تتحقق عند كلّ مستمع للقرآن الكريم، ومنا هنا نفهم دعوة محمد أبو موسى في وجوب أن يكون علم الإعجاز كعلم الفقه ميسرا، ومقروءا، وواضحا<sup>31</sup>. ومن ثمّ يكون تمتعه بتلك الصفات مرتبطا بالأدب شرطا. ويفهم من كلام الباقلائي أنّ الإعجاز البلاغي عنده لا يدركه ناقد الأدب إلا إذا كان متناهيا في هذا الباب، والتناهي يعني الدرجة الأعلى التي لا تطمح نفس إلى أبعد منها، وكأنّه نهاية التبحر، وغاية الإحاطة، سعة، وعمقا، وحسن تأت، ودقة نظر، وصحة نفس، وسداد رأي، وقوة خاطر، وكأنّ إعجاز القرآن هنا هو صفو الصفو في هذا الباب<sup>32</sup>.

والباقلائي أراد من خلال هذه الإشارات تحديد الجهات التي يجب أن يكون ناقد الأدب بصيرا بها، ومقتدرا عليها؛ وهي كثيرة، يذكرها محمد أبو موسى في قوله: « معرفة اللسان، وطرائق بنائه، وما أودع فيه من طاقات سواء منها ما يتصل بالمفرد، وما يتصل بالتركيب، هذا فضلا عن التبحر في المواضع النحوية، والصرفية، وما ينطوي وراء هذه المواضع من حكمة بيانية، وما تتنوع به طرائق الدلالة، من خبر واستخبار، وتفصيل وإجمال، وكناية وتصريح، وتعمير وتلويح، وغير ذلك مما هو معروف بسعته ودقته، وتنوعه، ثمّ المعرفة الواسعة بالطرق والمذاهب في الشعر، والكتابة، والأدب كله»<sup>33</sup>

ومن هذا المنطلق يربط عبد القاهر الجرجاني بيان حجة القرآن بمعرفة الشعر، يقول: « إذا كنّا نعلم أنّ الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وهبرت هي أن كان على حدّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن تعرف كونه كذلك إلا محالا أن تعرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب»<sup>34</sup>.

ومن ثمّ فإنّه لا يدرك « الحجة الباهرة إلا من علم الشعر وعرف بأي شيء يفضل بعضه بعضا وكيف ترتقي مراقبه حتى تصل إلى الغاية التي لا يجوز للبشر أن يتجاوزها، وكل

من سمع آية من المصحف وعنده هذا العلم يعلم أنّها تجاوزت الطوق، وخرجت عن الوُسع، وأنّ الذي يسمعه آية باهرة، وحجة بينة قاهرة»<sup>35</sup>.

والشعر في ذلك ينفعنا في الكشف عن وجه التحدي، والوقوف عند طبقة القرآن من البلاغة، والذي يصدّ عن الشعر في فهمه للقرآن كان « صاذاً عن أن تعرف حجة الله تعالى، وكان مثله مثل من يتصدى للنّاس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا به ويتلوه ويقرئوه»<sup>36</sup>، وليس في محاداة الله أشنع من أن يكون مثل الشخص مثل من يمنع الناس من تلاوة كلام الله، وهذا الذنب المهلك أساسه الغفلة، وعدم مراجعة الرأي، واتّباع ما يهيجس في خاطر من غير تمحيص، وكل الذي أفضى بهؤلاء إلى هذه المهلكة أنّهم ساء رأيهم، وساءت مقالتهم في الشعر، وأشاعوا في الناس فيه كلاماً يصرفهم عنهم<sup>37</sup>.

ودور الشعر في فهم كتاب الله ليس في أنّه يعرفنا فضل كلام على كلام، وإنّما الشعر له مزية في بيان حجة الله؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى حين « ابتعث نبيّه صلى الله عليه وسلّم لم يجعل للنّاس دليلاً على صدق نبوته يطالبهم بالإيمان به، سواء ما نزل عليه من القرآن منجّماً على ثلاث وعشرين سنة، وطالب عباده من عرب الجاهلية أن يتبَيّنوا أنّ ما نزل إليه هو كلام الله المفارق لكلام البشر على اختلاف ألسنتهم، وذلك بمجرد سماعه يتلى عليهم في آيات قلائل»<sup>38</sup>.

ومن ثمة فإنّه ينبغي الإقرار بأنّ أصحاب الشعر الجاهلي هم الذين نزل عليهم القرآن العظيم، وهم السابقون الذين آمنوا بأنّ كلام الله سبحانه وبأنّ التاليه عليهم هو رسول الله وإلى النّاس كافة صلى الله عليه وسلّم.

وإذا حصلت تلاوة القرآن ينبغي أن يصل القارئ إلى ملامسة حلاوته، وفضله؛ ولهذا نجد ابن قتيبة يحرص على تحقيق ذلك، وهو يردّ علماء المطاعن التي وجهت لكتاب الله، إذ يقول: « وإنّما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره واتّسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات؛ فإنّه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتّسع المجال أوتيته العرب خصيصاً من الله كما أرهصه في الرسول ﷺ، وأزاده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله عمله كما جعل علم كلّ نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه»<sup>39</sup>.

وإقامة الدليل على نبوته إنّما تتحقق بفهم القرآن ومعرفة علو بلاغته وإعجازها، ولذا حرص العلماء على تذوق الشعر الجاهلي؛ لأنّ يمثل التحدي المقصود كما أوامناً إلى

ذلك فيما سبق، فالشعر الجاهلي أصبح " بوصفه لغة، وسيلة أو وثيقة لتفسير لغة القرآن وفهمها، وليكون شاهدا على إعجازها، وبما أنّ القرآن ليس معجزا من ناحية المعاني وحسب، بل من ناحية البيان أيضا، فقد صار أصلا جامعا للغة والدين، ومع أنّ الشعر الجاهلي سابق عليه زمنيا فقد أصبح القرآن سابقا للشعر الجاهلي بكونه إعجازا، أي بكونه يتجاوز الزمن، ولم يعد الشعر الجاهلي إلا حجة للإثبات هذا الإعجاز"<sup>40</sup>.

ومن هنا نفهم كيف تم التوحيد بين اللغة والدين من جهة، وكيف أنّ علماء اللغة والدين أخذوا من جهة ثالثة يدرسون الشعر الجاهلي لا لذاته، بل لما فيه من اللغة التي تشهد للغة القرآن، فصارت لغة الشعر الجاهلي بمفرداتها وتراكيبها معجما أو مرجعا لفهم القرآن ولفهم الحديث أيضا<sup>41</sup>.

والشعر الجاهلي هو اللغة المثلى التي فهمنا فأعنتنا على فهم القرآن، وتفسيره، لما فيه من تأصيل وفنّ، ولغة أدبية راقية جدّا، وثناء وغواية، وهو ما يستشهد به (...); لأنّه مبني على معرفة أوضاع اللغة العربية الفصيحة المختارة والإحاطة بقوانينها ونظمها<sup>42</sup>.

ومن ثمّ يكون ارتباط القرآن بالشعر الجاهلي فهما وتدوقا؛ لأنّ فهم القرآن في ذلك مسند إلى واقع خارجي ( الشعر الجاهلي)، « ولكنه فهم مؤيد بعامل خارجي تُستوحى معانيه من نص دالّ وقع تجربته وإقراره مثل الشعر الجاهلي، ووعي داخلي تأويلي لا يخرج عن الحقيقة التي يحملها التعبير القرآني»<sup>43</sup>.

إنّ علماء البلاغة كانوا متفطنين جدا لأهمية الشعر الجاهلي ودوره في الكشف عن حجة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وفهمه. وقد فهم أبو عبيدة معمر بن المثنى قيمة حضور الشعر الجاهلي في مجالس الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم، واستند إلى ذلك في تفسيره للمجازات القرآنية؛ فقد عالج في كتابه قضية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية، وذلك عن طريق احتذاء أساليب العرب في الكلام، وسنتهم في وسائل الإبانة عن المعنى<sup>44</sup>.

وأبو عبيدة في ذلك إنّما كان على وعي بهذا الإجراء في التعامل مع القرآن، يقول فيما بيانه: « إنّما أنزل القرآن بلسان عربيّ مبين... فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه، لأنّهم عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه مما في كلام العرب مثله، من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني»<sup>45</sup>.

وقد لاحظنا الاستناد إلى الشعر الجاهلي في مقاربة الإعجاز في عدد من المصنفات البلاغية، عند عبد القاهر الجرجاني الذي كان الشعر عنده وسيلة تدريبية لتذوق القرآن، أو الزمخشري الذي تارة ما كان يعود في الكشف إلى الشعر لفهم كلام الله وغيرهما من علماء العربية، غير أنّ مبحث الإعجاز في حقيقة أمره سقط في عدد من المصنفات البلاغية التي جاءت بعد السكاكي، واكتفي الاهتمام فيه عندهم بشرح دور البلاغة في الكشف عن مواطن الإعجاز، إلى أن خصه جيل المحدثين بالمعاصرة وضبط العلاقة بين الأدب ( الشعر الجاهلي) بوصفه وسيلة لمحاورة القرآن بلاغيا، على غرار مصطفى صادق الرافعي، ومحمود شاكر، ومحمد محمد أبو موسى.

#### 4- خاتمة:

إنّ التواصل مع القرآن وتذوق إعجازه ليس أمرا هيّنا، بل يحتاج ذلك إلى ضبط جملة من العلاقات التي تساعدنا في فهم كلام ربّ العالمين أولا ومعرفة الفارق بينه وبين كلام الناس، وانطلاقا مما تمّ معالجته يمكن أن نستخلص النتائج الآتية:

- الكشف عن الحجة الإعجازية في القرآن القصد منها إقامة الدليل على نبوته صلى الله عليه وسلم.
- إنّ علاقتنا بالقرآن لا بدّ أن يكون منطلقها ضبط علاقتنا بالأدب، ومعرفة مذاهب الشعر، ومعرفة سنن العرب في كلامها.
- التعامل مع القرآن يحتاج إلى التوقف عند الفرق بين كلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.
- يحتاج التعامل مع القرآن إلى خطة تدريبية، نعمل من خلالها على ضرب الأمثلة، معرفة للفارق بين الكلام الصادر عن الربوبية والطالع عن الإلهية وغيره.
- إنّ البلاغة الفطرية التي كانت مستودعة في أدمغة الجيل الذي نزل فيه القرآن وبعده ساعدتهم في الوقوف على وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن.
- ضرورة التزود بعدة ناقد الأدب في تذوق القرآن؛ فالأمر يحتاج إلى معرفة اللسان وطرائق بنائه.
- لقد أكد علماء البلاغة ( أبو عبيدة والباقلاني والجرجاني وغيرهم) على ضرورة معرفة الشعر في الكشف عن الحجة.

- وبناء على ذلك يمكننا أن نقدم توصيات من شأنها أن تكون ذا فاعلية في تحقيق الهدف المرجو من وراء هذه الورقة العلمية:
- لا بدّ أن يكون إعجاز القرآن علماً يتدارسوه الناس في مختلف المقامات؛ في الجامعات (أقسام العلوم الإسلامية، واللغة العربية)، وكذلك في المعاهد الدينية خاصة بالنسبة لرتبتي إمام وأستاذ التعليم القرآني. ويكون ذلك في كل المستويات، حتى يعرف الطالب اجتهاد العلماء قديماً وحديثاً في معرفة وجوه إعجاز القرآن.
- إعطاء بالغ الأهمية لمقياس الشعر الجاهلي باعتبار المدخل الرئيس في التعامل مع القرآن؛ لأنّ ذلك يساعد المتعامل مع القرآن في فهمه أولاً، ومحاولة الوقوف على إعجازه البلاغي.
- إنّ الملاحظ في أقسام اللغة العربية وأدائها خصيصاً تراجع الاهتمام بالشعر الجاهلي فأصبحت برمجته تقتصر على إدراجه موضوعاً ضمن محاضرات الأدب القديم، والحق أنّ لا يساعد في ضبط العلاقة بين الإعجاز والشعر الجاهلي.

### مراجع البحث وإحالاته:

- 1 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط3، 1992، ص 11
- 2 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2014، ص 47.
- 3 عبد القاهر الجرجاني: المرجع السابق، ص 12.
- 4 محمود شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، دار المدني، جدة، 1997، ص 98.
- 5 ابن رشيقي: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981، ج1، ص30.
- 6 التبريزي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج1، ص 10.
- 7 الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص 608.
- 8 الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط8، 1990، ج9، ص 101.
- 9 محمود شاكر: مداخل إعجاز القرآن، دار المدني، جدة، ص8.
- 10 محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، 1943، ج2، ص 331.

- 11 الكليات، ص 149 .
- 12 يحيى بن حمزة العلوي: الإعجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، تحقيق بن عيسى باطاهر، المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2017، ص 525.
- 13 المصدر نفسه، ص 526-526.
- 14 محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، أخبار اليوم، مصر، 1993، ص 6.
- 15 صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، عمان، ط1، 2000، ص 58.
- 16 المرجع نفسه، ص 17.
- 17 الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 70 .
- 18 مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1996، ص 45.
- 19 محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1978، ص 10 .
- 20 الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 64 .
- 21 عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق علي محمد هشام، دار الكتب العلمية، بيروت، ج16، ص 210 و 211 .
- 22 عبد القاهر البغدادي: أصول الدين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1981، ص 170 .
- 23 يحيى بن حمزة العلوي: الطراز، ص 520 .
- 24 محمود شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، ص 94 .
- 25 محمود شاكر: مداخل إعجاز القرآن، ص 15 .
- 26 الرماني أبو الحسن: النكت في إعجاز القرآن ( ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 75 .
- 27 الباقلاني: إعجاز القرآن، اعتنى به أبو بكر عبد الرازق، مصر، 1994، ص 7 .
- 2828 المصدر نفسه، ص 37 .
- 29 نفسه، ص 126 .
- 30 نفسه، ص 126 و 127 .
- 31 محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص 287.
- 32 محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي ( دراسة تحليلية لتراث أهل العلم)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1997، ص 252.
- 33 المرجع نفسه، ص 252 .
- 34 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 7 .
- 35 محمد محمد أبو موسى: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص 289 .

- 36 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 9.  
37 المرجع نفسه، ص 290 .  
38 محمود شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، ص 60 .  
39 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص 39 .  
40 أدونيس: الثابت والمتحول ( بحث في الإبداع والإتباع عند العرب)، دار الساقى، بيروت، ط7، 1994، ج1، ص 203 .  
41 محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، مصر، 1988، ص 153 .  
42 عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، مجلد1، ص 5 .  
43 محمد سعيد القطاري: غريب القرآن والشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، الإربد، الأردن، ط1، 2011، ص 44 .  
44 بدوي طبانة: البيان العربي، ص 21 .  
45 أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن، ج1، ص 18 .

### قائمة المصادر والمراجع:

1. أدونيس، أحمد سعيد: الثابت والمتحول ( بحث في الإبداع والإتباع عند العرب)، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط7، 1997.
2. الباقلائي، أبو بكر: إعجاز القرآن، اعتنى به أبو بكر عبد الرازق، مصر، 1994.
3. البغدادي، عبد القاهر: أصول الدين، دار الآفاق الجديدة، بيروت. لبنان، ط1، 1981 .
4. التبريزي. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، (د.ت).
5. الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، دار المدني. جده. السعودية، ط3، 1992.
6. الخالدي، صلاح عبد الفتاح : إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار. عمان، ط1، 2000.
7. الخطابي، أبو سليمان : بيان إعجاز القرآن. ( ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976.
8. الخطيب، محمد عجاج: السنة قبل التدوين. مكتبة وهبة. مصر، 1988.
9. ابن رشيق، القيرواني: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت. لبنان، ط5، 1986.
10. الرماني أبو الحسن: النكت في إعجاز القرآن ( ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام/دار المعارف، مصر، ط3، 1976.

11. الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة. مصر، ط3، (د.ت).
12. الزمخشري، جار الله: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار المعرفة. بيروت. لبنان.
13. الشعراوي. محمد متولي: معجزة القرآن، أخبار اليوم، مصر، 1993.
14. شاكرا، محمود: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام. دار المدني، جدة، السعودية، 1997.
15. شاكرا. محمود: مداخل إعجاز القرآن. دار المدني. جدة. السعودية، (د.ت).
16. شيخون، محمود السيد: الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. مصر، ط1، 1978.
17. العلوي، يحيى بن حمزة : الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز. تحقيق بن عيسى باطاهر، المدار الإسلامي، بيروت. لبنان، ط1، 2017.
18. ابن قتيبة، أبو مسلم . تأويل مشكل القرآن، تحقيق سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون. لبنان، ط1، 2014.
19. القطاري، محمد سعيد: غريب القرآن والشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، الإربد، الأردن، ط1، 2011.
20. ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية، مكتبة المعارف. بيروت. لبنان، ط8، (د.ت).
21. مسلم، مصطفى: مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية، ط2، 1996.
22. أبو موسى، محمد : الإعجاز البلاغي ( دراسة تحليلية لتراث أهل العلم)، مكتبة وهبة. القاهرة، ط1، 1997.
23. أبو موسى، محمد : مرجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة وهبة. القاهرة، ط1، 1996.
24. النويري، عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق علي محمد هشام. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان (د.ت).